

أثر الاستعمار الروماني في الجوانب الثقافية والاجتماعية في بلاد المغرب القديم

د. بلقاسم رحمانى . جامعة الجزائر

الملخص:

يطرح الموضوع السياسة الاستعمارية الرومانية في بلاد المغرب القديم، وانعكاساتها على الميادين الثقافية والاجتماعية كنموذج، محاولا رصد أثر هذه السياسة، وإظهار نماذج من التطبيقات التشريعية في المقاطعات الرومانية، إضافة إلى إبراز الجهود الرومانية في سبيل جعل المنطقة في مختلف مظاهر حياتها (الاجتماعية، الثقافية، المعمارية...) تبدو وكأنها أوجدت محيطا رومانيا في المنطقة يعكس نجاحات السياسات الرومانية (الرؤمنة)، وذكرت بعض التشريعات الرومانية التي عملت عن طريقها على تجسيد سياستها الاستعمارية في منطقة المغرب، محاولا الخروج بنتائج بينت فيها الآثار الخطيرة الثقافية والاجتماعية لهذه السياسة بعيدا عن الأدبيات الرومانية.

Résumé

Je propose de présenter une histoire du Maghreb romaine qui a reflété le mouvement Général de l'histoire romaine, dans la phase d'ordre et d'organisations, comme dans la phase des troubles et de destruction, il est resté dans sa physionomie des traits propres qui la distinguent des autres provinces de l'empire, par-dessus tout semble-t-il un tour d'esprit réaliste, et positive qui se marque aussi bien dans les œuvres littéraires, que dans les actes de la vie quotidienne, mais l'impression dominante le Maghreb romain, c'est celle de l'extrême réceptivité de la grande faculté d'assimilation, des populations que les romains y ont trouvées en deux siècles, elles étaient arrivées a une romanisation assez complète pour ne plus se distinguer des Italiens, pour remplacer les mêmes emplois, penser et sentir de la même façon.

Et n'oublions pas un acte législative au cours de ce premier tiers du III^es, fut la consécration de l'œuvre de romanisation accomplie en Afrique, et dans toutes les provinces romaines ce fut l'édit de caracala en 212; par lequel cet empereur accordait le droit de cité romaine a tous les hommes libres de l'empire.

L'édit de caracala traduisait dans un texte législative, ce fait que les populations provinciales paraissaient définitivement, et complètement adapté à la civilisations romaine.

لقد كان للتوسعات الرومانية على حساب مراكز الحضارة اليونانية أن تأثر الرومان بكل مكوناتها، بل اعتبروا أن الحضارة الرومانية ليست سوى امتداد للحضارة الهلنسية والإغريقية، ولعل أبرز ما تأثروا به هو النظام المعماري الإغريقي الذي أنتج عمائر متنوعة ومميزة ساهمت في تطوير حياة الحضر بشكل سريع وواضح، والنهج نفسه اتبعه الرومان، حيث شهدت بلاد المغرب ميلاد مرافق حضرية عديدة، زودت المدن المغربية بعمائر عمرانية هامة مثل قرطاج، تيسدره، قيصرية، ولبتيس ماغنا، ولعل أهمها جميعا المدرجات والمسارح. وتعد مدينة تيسدره من أهم المدن التي ضمت هذه المنشآت لغناها بثروة الزيتون، وذلك منذ عهد هادريان الذي شهدت فترته إقامة منشآت معمارية ضخمة منها مدرج المدينة الشهير والذي يعد الثاني بعد مدرج روما، وهي المدينة نفسها التي انطلقت منها الثورة التي أوصلت الإمبراطور الإفريقي (قورديان الأول) إلى عرش روما. ويجمع الكثير من الباحثين⁽¹⁾ على أن وصول إفريقيين (السيويريين والقورديين) إلى العرش الإمبراطوري الروماني أثر إيجابا على المنطقة حيث شهدت منجزات معمارية عديدة، وتمت ترقية المدن، وزودت بالمرافق الضرورية لحياة حضرية متطورة في بلاد المغرب القديم.

والملاحظ أن الأثرين⁽²⁾ لم يعثروا على مدرجات أو مسارح رومانية قبل فترة الاحتلال الروماني، إلا أن استقرار الإغريق في أقصى شرق المغرب القديم أثر ولا شك في هذه المنطقة التي أسسوا فيها المدن الخمسة، وأبرز المظاهر الحضارية هي المسرح، وهنا يذهب بعض الباحثين إلى أن الملك ماسينيسا وبحكم تأثره بالثقافة الإغريقية، فإن المصادر ذكرت أنه أحضر فنانين إغريق لإنشاء مرافق بعاصمته سيرتا.

وعموما فإنّ الاحتلال الروماني جعل العديد من المدن المغربية تزخر بمرافق ترفيهية، دلّت على جانب من الرقي الاجتماعي، خاصة بعد أن أصبحت تنظم بها الألعاب بتمويل من طرف أعيان المدينة، ومن أهم المنشآت المعمارية ذات الدور الثقافي نذكر:

1- المسرح: يعد من المنشآت المعمارية ذات الدور الثقافي البارز، حيث أدى دورا ثقافيا ترفيهيا، وامتاز بالضخامة وبأشكال هندسية رائعة، وقد قُدِّمت على خشبته أعمالا أدبية كثيرة تمثيلا وغناء بشكل حر مما ساهم في تثقيف الشعب. كما شهد تنظيم احتفالات عديدة في مناسبات مختلفة، منها

الاحتفال بالشخصيات النافذة السياسية أو الدينية، أو بمناسبات دينية أخرى كالاحتفاء بإله، حيث أن التقليد الروماني يقضي بأن تكون الألعاب المسرحية جزءاً من الاحتفال الرسمي بأحد الآلهة⁽³⁾، وقد كان مسرح قرطاج يضم بين 60 إلى 75 ألف متفرج، ومسرح قيصرية يضم ما بين 20 إلى 22 ألف متفرج⁽⁴⁾.

أ-المدرجات: يعرف المسرح المدرج بـ (Amphitheatre) وهو مبنى ضخم يتكون من قاعدة بيضوية الشكل وقمة مخروطية، وله جداران داخلي وخارجي يبعدان عن بعضهما بحوالي 4.30م⁽⁵⁾، ويعد مدرج ثيسدرة أكبر مدرج في المغرب (يقع قرب مدينة الجم الحديثة)، تم بناؤه في زمن الإمبراطور قورديان، وأصبح . منذ ذلك الوقت . يحتضن الألعاب والمهرجانات. ويقدر عدد من الباحثين أن سعته تراوحت بين 30 ألف و40 ألف متفرج، إضافة إلى الشرفات التي خصصت للشخصيات وكبار الموظفين، وعائلاتهم، كما بُني فيه جدار يفصل المدرجات عن الحلبة لحماية المتفرجين من خطر الحيوانات المفترسة⁽⁶⁾.

ب-الحمامات: يكاد يجمع الأثريون على أن الحمامات اختراع روماني محض، وهي منتشرة في المدن ذات العمارة الرومانية، وتتكون هذه الحمامات من قاعات ذات هندسة معمارية جميلة ومتناسقة، تزينها المنحوتات المزخرفة، ولوحات الفسيفساء، مع ذلك المنظر الذي يتكرر في زخرفة الحمامات، والذي يضم كائنات بحرية خرافية، إضافة إلى ألواح فسيفسائية تغطي أرضية القاعات، وبالتالي فالاستحمام في الحياة الحضرية يُعد طقساً للإنسان الحضري⁽⁷⁾.

من هنا يتضح أن إنشاء المرافق المذكورة في مختلف المدن المغربية دليل على رفاهية الحضر في هذه المدن الرومانية المغربية، مما أدى إلى ازدياد تأثير الحضارة الرومانية على المجتمعات الحضرية المغربية التي اندمجت في الحضارة الرومانية.

-الأثر اللغوي:

يلاحظ أن الساسة المغاربة قد عرفوا اللغة اللاتينية من خلال العلاقات التي ربطتهم بروما، سواء كان ذلك في فترات السلم أو الحرب، ومنها علاقات ماسينيسا الوطيدة مع الرومان⁽⁸⁾، والتي استمرت طيلة عهد ابنه ماسينيسا وهي

العلاقة التي جعلت حفيده يوغرطة يقف إلى جانب الرومان في حرب نومنتيا، كما أن أذربعل ألقى خطابا في مجلس الشيوخ أورده سالوست⁽⁹⁾، ورافع يوبا الأول في مجلس الشيوخ⁽¹⁰⁾، ولم تشر المصادر إلى وجود مترجمين لهم، إضافة إلى أن المدن النوميديّة شهدت وجود تجار رومان خاصة في سيرتا، وضم الجيش النوميدي في صفوفه جنود رومان ضمن فرق الجند المأجور .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أنه خلال الاحتلال كان للغة والثقافة اللاتينية تميزا، حيث شهدت انتشارا واسعا بفعل إلزامية استعمالها في النظم الإدارية والاقتصادية وخاصة القانونية التي أقرت جملة من الشروط للحصول على المواطنة ومنها الثقافة الرومانية ومفتاحها اللغة اللاتينية، وبذلك فإنها تعد أولى اللبنات في سياسة الرّومنة⁽¹¹⁾.

ومن أهم أدوات الرومنة المتدرّجة مناهج التعليم التي كانت تركز على القراءة والكتابة والحساب ثم النحو، وكان على التلاميذ أن يحفظوا بعض أمهات الكتب في مرحلة التعليم الأولى، وفي المراحل اللاحقة تمتد الدراسة إلى الفنون والعلوم الأخرى (الشعر، الموسيقى والفلسفة والرياضيات...)، ونظرا لانتشار

مراكز التعليم في الحواضر، فقد كان مجتمع المدينة أكثر تأثراً بالرومنة اللغوية من غيره.

وتعد قرطاج نموذجاً حياً لهذا التأثير، حيث تحولت في أوج ازدهارها وتألقها إلى عاصمة للثقافة اللاتينية في إفريقيا بمدارسها وطلابها وأساتذتها، وهو ما يؤكد أبو ليوس المادوري من خلال قوله: "إنك لا ترى في قرطاج إلا نخبة المثقفين الضليعين في مختلف العلوم، تلاميذ يدرسون، شباب يتباهون بعلومهم، وشيوخ يدرسون. إن قرطاج مدرسة معتبرة في منطقتنا، إنها هدية السماء للإفريقيين"⁽¹²⁾، غير أن الظاهرة الثقافية وحتى الاجتماعية الملفتة للإنتباه أكثر من ذلك هي المدن التي أصبحت ناطقة بلغة المستعمر، في حين حافظ الريف على أصالة لغته. وإذا حاولنا مقارنة السياسة الفرنسية أثناء الفترة الاستعمارية بالرومنة، فإننا نلاحظ انحسار الثقافة المحلية-الوطنية-منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أمام موجات الفرنسة، حيث ظهر أول جيل تشبع باللغة والثقافة الفرنسية على أنقاض الجيل الذي حارب الاستعمار الفرنسي وهو الذي عرف باسم النخبة وتولى الدعوة إلى تجنيس الجزائريين وإدماجهم قلباً

وقالبا في فرنسا، غير أن الفرق بين الحالتين هو أن سياسة الرومنة قد استغرقت وقتا أطول حتى آتت أكلها لاختلاف الظروف والإمكانات.

ومن أشهر الشخصيات التي جسدت هذه السياسة ، وكانت علامة على النخبة المرومنة أبوليوس المادوري، وقد سجل القديس أوغسطين هذه الظاهرة في شهادته حينما صرح أن : " الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب، لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها السياسية فحسب بل لغتها أيضا... " (13).

والملاحظ أن المدرسة الرومانية في بلاد المغرب (إفريقيا) كانت لا تختلف عن نظيرتها في روما، والدليل على ذلك أن الشاعر اللاتيني يوفينال ينصح طالبا رومانيا بالذهاب إلى إفريقيا طلبا للعلم، قائلا له: " إن إفريقيا هي الأرض التي أنبتت المحامين والفصحاء مثل سبتموس سيويروس وفلوروس"، من هنا يتضح لنا مدى أهمية وعمق التأثير الروماني في بلاد المغرب.

4-رومنة الأسماء وعلاقتها بالمواطنة:

إن تطبيق روما للسياسة المذكورة في ميدان الثقافة والتعليم جاء إدراكاً منها أن استمرار سيطرتها على المنطقة يجب أن يستند إلى سياسة استقطاب العناصر المحلية ذات الولاء الراسخ للرومان بفعل عملية الإدماج عن طريق الثقافة واللغة والحضارة الرومانية، لذلك اعتبروا مبدأ المواطنة أفضل وسيلة لتجسيد أهداف روما وتثبيت سلطتها، وذلك باعتبار المواطنة ترقية اجتماعية وسياسية للأفراد والجماعات، وترسيخاً للولاء لروما، ولقد أشاد بذلك عدد من المؤرخين والباحثين منهم كاركوبينو الذي نوه بهذا الأسلوب بقوله أن روما سخرت قوتها العمومية لفرض قانونها الخاص لتتقاسم سيادتها على البلاد المستعمرة، وذلك من خلال القوانين التي شرعتها روما⁽¹⁴⁾.

وقد نصت هذه القوانين على أنه لا فرق بين الروماني بالولادة والروماني بالتجنس، ولا فرق بينهما في تحمّل أعباء المواطنة، منها واجب الخدمة العسكرية، ودفع القسط العشريني من التركة. وبمرور الزمن أصبح الواجب الأول اختيارياً بينما ظل الثاني إلزامياً، والقوانين نفسها الخاصة بالمواطنين بالأصل أو التجنس خضعت لها ممتلكاتهم طبقاً لقواعد الملكية الرومانية، بل حتى الزواج كان يتم حسب القانون الروماني.

وقد تمتع الفرد في ظل وضعيته القانونية هذه بامتيازات عديدة ، وزالت من أمامه الكثير من العراقيل. ولعل أبرز المكاسب التي حصل عليها هي أنه وفقا لقانون الحالة المدنية الرومانية، فإنه يتخذ الاسم الثلاثي الروماني ليكمل اندماجه النهائي في المجتمع الروماني .وحسب بعض المصادر فإن التحول يصل إلى حد فرض تغيير الملابس التي يعتبرها القانون الروماني أجنبية عن اللباس الروماني، فالمتجنس الحاصل على المواطنة الرومانية ظل إلى غاية القرن الثاني الميلادي لا يمكنه الخروج إلى الحياة العامة في غير اللباس الروماني، وخاصة التوجه (Toge) (15).

كما يصبح من حقه أن يكتسب "المشروعية الزوجية". ذلك أن اقترانه بزوجته شرعيا يجب أن يتم وفق القوانين الرومانية المعترف بها، والتي يدونها بعد زواجه على الطريقة المحلية ، وهذا الإجراء الأول في نظر الرومان زواج غير قانوني وبالتالي غير مشروع، و لا يعترف بما يترتب عنه من أمومة وأبوة وقراية. فالاسم الروماني الثلاثي يمكن الفرد من تعزيز مكانته وسط الرومان وتثبيت كيانه بينهم .

ويلاحظ أن مسألة الأسماء هذه تناولتها عدة دراسات، فالمغاربة الذين حصلوا على المواطنة الرومانية حملوا في الأغلب أسماء وألقاب العائلات الرومانية الأرستقراطية واتخذوا مشاهيرها حماة لهم، وهو تقليد معمول به، فالمدينة لها حام والعائلة لها حام...، وبالتالي يؤكد الدارسون على أنه من الصعوبة التمييز بين الروماني بالأصل من الروماني بالتجنس، ونادرا ما يعثر الباحثون على فرد احتفظ بلقبه الأصلي، وبالتالي يرون أنه من الخطأ اعتبار كل الأسماء التي خلدتها النقوش هي أسماء الرومان بالأصل رغم عدم كفاية الأدلة لحد الآن، إلا أن دراسات أخرى ترى أن هذه الأسماء تحمل أسماء عندما تترجم تعطي معاني لأسماء إفريقية نوميديّة كانت معروفة في المغرب ما قبل الرومان⁽¹⁶⁾.

والملاحظ أن المشرّع الروماني كان محتاطا في منح المواطنة، بل إن كلوديوس منع الأشخاص الأجانب من حمل الأسماء الرومانية، ومن استعمالها يعد مغتصبا لها لأنها عنوان شرف، كذلك بالنسبة للذي يرتدي التّوجه (Toge) من الأجانب أو العبيد أو المحكوم عليهم فإنه يُعزَّم، وبالتالي فالمواطنة ارتقاء وتحرر وفق التشريع الروماني، وهذا الوضع هو الذي دفع بالكثير من سكان المدن للعمل على الحصول على المواطنة والاندماج الكلي والقانوني،

سواء لتحقيق المساواة أو لرفع المظالم الواقعة بحقوقهم، خاصة أن سكان المدن كانوا تحت أعين السلطة الرسمية الرومانية باستمرار عكس الريف، إلى أن جاء دستور كاركالا الذي عمم المواطنة الرومانية على جميع أحرار الإمبراطورية، إلا أن هذا التعميم لم يشمل الأرياف بقدر ما شمل سكان المدن التي كان سكانها قد تأقلموا مع الحضارة الرومانية، وبالتالي لم يكن صدور هذا الدستور سوى تسوية إدارية لأوضاعهم لا أكثر، وهو ما شبهه البعض بالرومنة القانونية.

وعلى حد قول عدد من الباحثين فإن الرومنة لم تتجاوز في الواقع المدن الكبيرة ذات التأثير الروماني القوي، والتي سماها البعض بالحضارة الرومانية الإفريقية، في حين ظل الدين محافظاً على إفريقيته، ونسجل هنا أن اللغة اللاتينية وجدت في المدن مكاناً خصيصاً لها أمام خلوها من منافسة لغوية حقيقية كبلاد الإغريق، لذلك فإن البونية والليبية تراجعت وارتبطت بالجانب الطقوسي الجنائزي.

وقد ظلت البونية تضمحل تدريجيا إلى أن زالت في العهد الإمبراطوري الأول، في حين أصبحت الليبية أداة مشافهة معزولة في الجبال والأرياف ثم تحولت تدريجيا إلى لهجات تفتقر إلى مرجعية موحدة⁽¹⁸⁾.

5- الآثار الاجتماعية:

يرى عدد من الباحثين أن الحضارة التي كانت متواجدة في قوريناية أوقورين قد بدأت في الانتشار نحو بلاد المغرب (غرب ليبيا الحالية) خاصة بعد زوال عقبة قرطاجة، مما جعل مملكة ماسينيسا النوميديّة مجاورة بل وعلى علاقة مباشرة مع المركز الحضاري الإغريقي في (ليبيا) إضافة إلى التبادل التجاري الذي كان بين الطرفين، بل إن ماسينيسا عمل على تنشئة ابنه مستنبل على التنشئة الإغريقية، ومنها اشتراكه في الألعاب المنظمة في بلاد الإغريق وفوزه فيها، وقد ذكرت بعض النصوص أن ميسيبسا كان مهتما بعلوم عصره ومطلعا على اللغة الإغريقية متبعا في ذلك مسيرة أبيه ماسينيسا، ويستدل على ذلك إحضاره لعاصمته سيرتا فنانين إغريق مما جعل البعض يقرأ ذلك أنه محاولة هَلَنَنَة المملكة النوميديّة ، إلا أن هذا الجهد جاء متأخرا خاصة وأن قوة جديدة كانت متأهبة

لفرض سيادتها الكاملة على غرب البحر المتوسط، مما جعل منطقة المغرب عرضة لمختلف سياسات وممارسات الاحتلال الروماني التي ميزت هذا الاستعمار، حيث خلفت آثارا عديدة في مختلف جوانب الحياة المغربية.

ويلاحظ أن المجتمع الليبي النوميدي كان في أغلبه مجتمعا غير طبقي ، وعليه فإن عددًا من الدارسين يستبعدون وجود طبقية في الفترة المذكورة وفق التقسيمات المعروفة، وذلك لعدم وجود الأدلة، خاصة وأن اقتصاد القبيلة لا يسمح بتراكم الثروة، ونمو الفوارق الطبقية، ويصفه البعض بأنه اقتصاد عائلي لا أكثر، وبالتالي فالجاء والنفوذ لا يخرج عن نطاق الأسرة مجسدة في الأبوة، ويعمل البعض ذلك أنه لا وجود لأرباب العمل والنظم الاستقلالية بل أعيان وزعماء تولوا الأمر بتأييد من أبناء القبيلة، وبالتالي لم تكن الثروة والأموال مصدر قيادتهم، وهو عكس ما حدث في الفترة الرومانية، حيث أن الاستعمار الروماني بني على مبدأ غالب ومغلوب، وعليه فإننا نجد أنه على هذه القاعدة شرع الاستعمار الروماني معلنا بداية تشريعية للاستعمار الروماني وخلق فوارق اجتماعية في المجتمع المغربي القديم، تجلى في ظهور طبقات متميزة هي:

أ- طبقة كبار الملاك:

تصنف هذه الطبقة ضمن الذين نالوا رضا الاحتلال الروماني وأضاف إليهم بعض الدارسين من سموهم بالمندمجين الجدد، وهم المجددون وكبار الموظفين الذين قدموا خدمات جليلة للاستعمار الروماني فنالوا مكافأة المحتل، حيث أصبح عدد المغاربة يزداد في دوايب الإدارة الرومانية، مما جعل أحد الباحثين يذهب إلى أن نسبتهم قد بلغت الثلث في مجلس الشيوخ الروماني، ومن أبرز نماذجها وصول العائلة السبيورية المغربية إلى العرش النوميدي الروماني، إلا أن عدد هذه الفئة النخبوية ضعيفاً مقارنة بوزن المنطقة الاستراتيجي وعددها السكاني⁽¹⁹⁾.

ب- الطبقة البرجوازية:

وهي عبارة عن فئة تشكلت من ذلك الاختلاط الذي حصل بين المغاربة والرومان وكلا الطرفين تمتعوا بالمواطنة الرومانية، فاعتبر الباحثون ذلك مظهراً اجتماعياً جديداً بالمنطقة، يرتبط بولاء متعدد المظاهر للرومان

وحضارتهم، ولعل أبرز هذه الشخصيات التي مثلت هذه الطبقة والتي دافعت عن هذه الفئة وبقناعة القديس أوغسطين⁽²⁰⁾.

ج- طبقة الأحرار:

صنفها الباحثون على أنها تمثل بقية الأهالي، رأسماهم قوة سواعدهم وحريرتهم، وصنفهم القانون على أساس أنهم أجانب (**PERIGRINS**)، وتميزوا بأن أملاكهم انتزعت منهم في بدايات الاحتلال، وصنفوا في أدنى الرتب الاجتماعية وأصبحوا قوة عاملة لدى الملاك الكبار⁽²¹⁾.

ثم ازدادت وضعيتهم سوءًا بمرور الزمن، مما جعلهم يشكلون فيما بعد قوة ثائرة ضد الاستعمار الروماني، خاصة بعد أن أصبح وضعهم أقرب إلى وضعية العبيد.

د- طبقة العبيد:

تصنف هذه الطبقة مع الأفراد الذين فقدوا حريتهم بسبب مقاومتهم للاحتلال الروماني، وقد مارسوا مختلف النشاطات والأعمال لصالح كبار الملاك، ويعمل هؤلاء العبيد تحت قيادة المحررين منهم، ويلاحظ أن عبيد القصور والأسبياد قد تم استقدامهم من بلاد الإغريق ومن شرقي المتوسط، باعتبارهم - حسب الرومان - من المنطقة الأكثر تحضرًا، وأن عبيد المغرب (المحليين) يرفضون أو يكرهون عمل البيوت والقصور، معتبرين ذلك مساسًا بكرامتهم، لذلك وجهوا إلى العمل في المزارع⁽²²⁾.

6- روما ونظام القبيلة المغربي:

يلاحظ أن المدن التي لم تقاوم الاحتلال الروماني قد حصل سكانها على المواطنة الرومانية، واندمجوا في الوضع الجديد، وأصبحوا مواطنين جيّدين، أما عن وضع سكان الأرياف من المزارعين والبدو فإن التشريع الروماني قد سنّ إجراءات مكنت الرومان من ترسيخ الاستعمار، ثم السيطرة على ثروات المنطقة ومصادرها بصورة خاصة . فقد وضعت إدارة الاستعمار الروماني نظام العزل المعروف بفكرة (CANTONNEMENT) الكنطنة، والذي يرمي إلى عزل

القبيلة ووضعها داخل إقليم معين بموجب تشريعات قانونية، وبناء على إجراءات المسح القانوني يتم تجريد القبيلة من أراضيها وترحيلها إلى أراضي جبلية أو شبه صحراوية. وقد كان لهذه الإجراءات التعسفية الظالمة وطأتها الشديدة على القبائل، الأمر الذي دفع بها إلى الثورة على الحكم الروماني كما كان الحال مع قبيلة المزسولام التي امتدت ثورتها إلى أكثر من سبع سنين⁽²³⁾.

أ-الرومان وإجراءات نزع الملكية:

تذكر مصادر المساحة الرومانية أن السلطات الحاكمة تقوم بدراسة كاملة لإقليم القبيلة التي تكون موضع تطبيق هذه الإجراءات. وأن هذه الإجراءات تُطبَّق بصفة خاصة على الأراضي الخصبة التي تتوفر بها المياه ومناطق الرعي، وبذلك تكون روما قد حققت نظرية السيطرة المزدوجة (الأرض والإنسان)، حيث تنتقل هذه الأراضي بمجرد انتهاء إجراءات المسح بشكل تلقائي إلى ملكية الشعب الروماني، وتعتبر روما ذلك بمثابة تنازل للقبيلة عن منطقتها التي تعيش فيها. ويعد نزع ملكية القبيلة أمراً مشروعاً حسب التشريع الروماني، ثم تُضمُّ هذه الأراضي المنزوعة إلى أراضي المستعمرة المجاورة أو إلى

أملاك الإمبراطور، أو كبار الملاك . ولاستغلال هذه الأراضي التي انتزعت من أصحابها، فإن جزءاً من ملائكتها يبقون فيها كيد عاملة، وهو الإجراء الذي أثر على السكان بمرور الزمن، فالذين احتكوا بالرومان وتأثروا بهم اندمجوا في المجتمع الروماني الغازي، في حين بقي الآخرون الذين ألزمهم القانون بالعيش في حدود منطقة العزل بعيدون عن هذه التأثيرات، حيث تعيش القبيلة وفق أعرافها وتقاليدها وعلى موارد قليلة بعد أن جردت من أراضيها⁽²⁴⁾.

وقد أوضحت الأبحاث الأثرية الطريقة التي كانت تجري بها إجراءات نزع الملكية، من ذلك قيام البروقنصل (وييوس مارسوس) بعد نهاية حرب المزسولام حوالي 30م بتطبيق إجراءات (CONTANNOMENT) ضد قبيلة نوبقني (NYBGENII) التي تقع مساكنها جنوب شرق موطن قبيلة المزسولام، كما طبقت عليها (قبيلة نوبقني) إجراءات المسح والكنطرة (CENTURIATION) ما بين قابس، وشط الفجاج، و الإجراءات نفسها تعرضت لها قبيلة الزبربر (SYBARBURES)، ونقاوة (NICIVES) في ناحية ثيجيس (عين البرج)، حيث تم تثبيت الحدود ما بين الأملاك السيرية وكانطون القبيلتين⁽²⁵⁾.

ب- تشريع قانون القبيلة:

لقد أدى إجراء العزل والمسح إلى تشريع قانون خاص بالقبيلة (STATUT)، وبذلك أصبح لها وضع قانوني وديني ومجلس بلدي مع احتفاظها بنظامها التقليدي، وبالتالي أصبح لها كيان خاص بها ولعل قبيلة ميسيكير (MISICIR) تقدم مثالا على ذلك، حيث أنها تشكل إتحادا قبليا بقي محتفظا بالأراضي التي أبقتها لها الإجراءات السابق ذكرها، وهي منطقة جبلية وغابية، وهي منطقة الشافية الواقعة بين مجردة وبوناموسة، واحتفظت بميزاتها التقليدية المحلية⁽²⁶⁾.

والملاحظ أن إجراءات الكنطنة الواردة ضمن التشريع الروماني اعتبرت أن الأراضي التي تركت لهذه القبائل من الناحية القانونية أراض للاستغلال فقط (DROIT D'USUS) وبالتالي فليس لها حق ملكيتها، وهذا يعني أن القبيلة الخاضعة لإجراء (CIVITAS-STIPENDIARIA) تعتبر بلدة عامة (CONTANNOMENT) مما يؤهلها إلى أن تتوسع عمرانيا، ولعل حالة قبيلة النتابوت أبرز مثال على ذلك الوضع⁽²⁷⁾.

من هنا نستنتج أن السياسة الاستعمارية الرومانية أحدثت تحولات خطيرة في تركيبة وحياة السكان ، وأبرز هذه التحولات هي تلك الناتجة عن تطبيق سياسات العزل التي أدت إلى انغلاق العديد من الجماعات السكانية على نفسها ، مما أضعف روح التواصل والإتحاد بينها. ومنها أيضا عزل المدن عن الريف بفعل التأثير اللغوي والثقافي الذي أوجد فجوة عميقة بين الطرفين، ثم حدوث تركيز سكاني في مناطق جبلية فقيرة، وكثافة سكانية قليلة في السهول الخصبة، الأمر الذي مهد لبداية ظهور النظام الإقطاعي في المناطق الغنية، وبالتالي حدوث الانقسام في المجتمع المغربي. فساكن الحضر أخذوا بالحضارة الرومانية وانقطعت صلتهم باللغة اللبية وهي لغتهم الأصلية، وعملوا على تحقيق ذاتهم من خلال ثقافة المستعمر الروماني الغالب . أما ساكن الريف فظلوا يحافظون على هويتهم التي عجز الرومان عن رومنتها، وبالتالي سادت بينهم الزعامات القبلية عوضا عن القيادات الوطنية، وكانت القبيلة هي آخر القلاع التي احتمت بها هذه المجموعات السكانية في المنطقة، وقد كشف الغزو الوندالي عن تحول هذه التجمعات القبلية إلى ممالك صغيرة متناحرة عطلت ظهور كيان وطني موحد.

كما أحدثت سياسة الرومنة أيضا انقسامًا لغويًا في المجتمع ، زاد من عمقه اتساع الفروق الثقافية، حيث أن الجزء الناطق باللاتينية تركز في الحواضر ونظر إلى سكان الريف نظرة استعلاء واحتقار، في حين كان يفترض في هذه النخبة التي استوعبت الحضارة اللاتينية ألا تقطع الصلة بلغتها الأصلية وأبناء شعبها لتضمن تواصل الأجيال بها إلا أن الاستلاب الحضاري تمكن منها، إلى درجة أن عددا من الدارسين فسر زوال المسيحية مع الاستعمار الروماني في آن واحد من بلاد المغرب بكون السكان قد ربطوا في أذهانهم بين المسيحية واللاتينية باعتبارهما وجهان لعملة واحدة لذلك زالا معا.

المصادر والمراجع

- 1- انظر: الدراسات الجادة للدكتور محمد العربي العقون منها: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية 2008، ص 259-295.

2- انظر: تقرير المسح الأثري الصادر في مجلة الآثار العربية لمجموعة من الباحثين، مطابع الشرق العربية، لندن، 1999م.

Jerzy (K) les lieux de Spectacles en Afrique romaine et les études denrigraphiques (colloque international sur l'Histoire de l'Archéologie de l'Afrique du Nord) Paris, 1992; PP29-35.

Ibid, P35-4

Brunon (c) Notes sur les vestiges d'un monument découvert a Constantine, dans RSAC, XVII, 1975, P64.

Vars (ch) Recherche archéologiques sur Constantine dans RSAC, XXIX, 1894, PP427-428.

7- محمد العربي العقون، المرجع السابق، ص. 266

Camps (G) Massinissa ou le début de l'Histoire, Libyca, -8 1962, P199.

Sallustins (c.c) Guerre de Jugurtha, Traduit par Emont,Ed; -9 Belles lettres, Paris, 1974.

La Croix(L) Histoire de la Numidie et de la Mauritanie, -10 Paris, P118.

- 11- عن هذه السياسة لدى الأستاذ محمد البشير شني، سياسة الرومنة، ص 17-18.
- 12- عبد الودود إسماعيل، قرطاجة الإفريقية، بيروت، 1998، ص. 83.
- 13- شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وبشير سلامة، تونس 1969، ص. 248.
- 14- Carcopino (J) Du droit de cité accordé par les romains aux —
Peuples conquis, Extrait des Annales Universitaires de
l'Algérie, Mars 1915; P2-5.
- 15- محمد العربي العقون، المرجع السابق، ص. 274.
- 16- PF laum (H.G) Remarque sur l'honemastique de castelum -
celtiaman dans, Carmuntina, Graz, Kolin, 1956; PP126-151.
- Lassert (J.M) onomastica Africana, in Ant.Afr, TXIII, - 17
1979; PP229-234.
- 18- محمد العربي العقون، المرجع السابق، ص. 277.
- Gagé (J) les classes sociales dans l'empire Romain, Ed, - 19
Payat, Paris, 1904, P390-398.
- Ibid, PP153-182 -20

- 21- محمد الشيرشني، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر 1984، ص 33-34.
- 22- Lassert, Opcit, PP430-431.
- 23- محمد العربي العقون، المرجع السابق، ص 279-280.
- 24- Carton (L) une inscriptions relative au territoire des Musulmans, CRAI, 1923, P71-73.
- 25- محمد العربي العقون، المرجع السابق، ص 280.
- 26- Camps (G), Opcit, PP250-280.
- 27- Benabou (M) la résistance Africaine a la romanisation, Ed, masper, Paris, 1976, P 439.